مالك ابن نبي وكتابه الصراع الفكري
في البلاد المستعمرة نموذجا

د. منصور عفيف .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مالك ابن نبي :

هو الطالب والمدرس و الكاتب والناقد في شتى مناحي الحياة الفكرية و العلمية .

يقول علي قرشي : إنه عربي من أبناء الجزائر، ولد سنة 1905 في قسنطينة ، وانحدر من أسرة متدينة ظلت تحافظ على حيوية الحس الإسلامي على الرغم من الإبادة الفكرية وخطة الذوبان التي انتهجتها وقام المستعمر في الجزائر ، ولقد سيرته هذه النشأة إنسانا تتوجه بل اهتماماته بالمسائل التي تتسم بالطابعين الديني والإنساني و ظل اتجاهه ينطلق من هذين المرتكزين طوال مراحل حياته و دراسته.

حاز مالك على الليسانس في الهندسة الكهربائية من باريس ، ولما بدأ يتلمس سبل الرزق كانت حياته و دراسته عامرة بالنشاط والحيوية الفكرية الفعالة ، وكان لشخصه تألق نافذ في التجمعات التي كان يؤسسها و يعقدها المغاربة في باريس منها نادي المؤتمر الجزائري ، لذا كان من الطبيعي بالنسبة لمستعمر يحاول فرنسة شعب فكريا ولغويا وحضاريا أن يتحرك انتباهه إزاء هذا الرجل فيجد فيه شعب خطر وسير معاكس عنيد ... وهذا ما جعله يعمل

على وضع العقبات في طريق عيشه حتى أخذ يمارس تجاهه ضغوطا متواصلة وملحة تمكن من خلالها زحزحته عن مجال تخصصه.

لقد كان يحسب المستعمر لإمكانياته الذهنية وأفكاره الاجتماعية والتقنية المتجهة نحو صميم المشاكل التي يعانيها شعبه المستعمر ألف حساب .

رغم هذا ورغم الأبواب الأخرى الموصدة، واصل مالك مسيرته الكفاحية كأروع و أقوى ما يكون الكفاح ، وإذا كانت مضايقات العيش لم تفت من عضده و لم تطفئ جذوة الفكر والعزيمة فيه فإن مضايقته في حريته و زوجه (وكان ذلك في نهاية الحرب العالمية الثانية ــ كما ذكر مواطنه ــ الطيب الشريف) قد زاده قوة وإيمانا ومضاء.

لقد سلخ مالك أكثر من ثلاثين عاما من عمره قضاها في أوروبا وكانت تلكم السنين الطويلة بالنسبة إلى رجل مثقف مرهف الحس سببا في ايقاض الشعور في نفسه وفكره بأنه عربي مسلم ، لقد كان تعمقه في الثقافة الأوروبية و معرفته مصادرها ودوافعها الحقيقية سبب تحرره منها ، خصوصا وأنه جمع إلى جانب الثقافة العلمية ، التقنية فلسفية ونفسية وسياسية واسعة الأبعاد عميقة الأغوار جعلته يقف من تلك الثقافة الأوروبية موقفا واعيا يمتاز باستقلالية وأصالة عميقين .[1]

وإذا كان ابن نبي قد اتخذ من الإنسان محورا له في كتابته عن مشكلاته وأحداثه فرأى أن الأمر يكمن في الإنسان والتراب والوقت وفكرة دينية هذه الحضارة هي لبنة حضارة كل مجتمع من المجتمعات.

تلخيص لكتاب الصراع : فإن تتخذ فكرة الصراع الفكري عنده كمحور من المحاور التي تناول فيها قضية مجتمعات العالم الثالث وما يحيط بها من مشكلات وما تتعرض له من غزو على يد أرباب هذا الصراع حيث يتألف كتابه من مائة واثنين وثمانين من الصفحات الصغيرة ونذكر فيه بإيجاز هذا الصراع حيث قسمه إلى أجزاء أولها مدخل للموضوع وقد قال فيه : هناك أشياء لا يجدي الحديث عنها إن لم يكن مستمدا برهانه من تجربة شخصية تضيء الموضوع من الداخل بضوئها الخاص وهذا المدخل يحتوي عشرة صفحات كلها نابعة من تجارب الرجل وأفكاره و مبادئه وحياته مع العامة والخاصة .

ثم يتحدث عن عموميات عن الصراع الفكري فيقول : يجب علينا أن نرجع إلى الوراء شيئا ما لنرى كيف بدأ الصراع الفكري يأخذ طابعه في البلاد المستعمرة و هذا العنوان يحتوي على ثلاثين صفحة تحدث فيها عن مكائد الصراع وأهداف أصحابه و منطلقاتهم وأوضاعهم عندما يكونون مخططين أو منظرين لهذا الصراع

وأما العنوان الثالث الذي أطلقه على حلبة الصراع والذي يقول فيه : إن الاعتبارات التي تقدمت في الفصل السابق ، تبين كيف أن الغموض يكون العنصر الأساسي الذي يميز الصراع الفكري وقد سخر لهذا الموضوع ثمانية وثلاثين صفحة.

وأما في الفصل الثالث فقد تحدث عن رأي آخر للصراع الفكري تحت عنوان تركيب آخر لمرآة الكف وفيه قال : لو اقتنعنا في هذا الغرض بالجانب القصصي ، لكانت القصة التي تابعنا تفاصيلها إلى هنا كافية وقد جعل لهذا الرأي تسعة وأربعين صفحة .

وأما آخر موضوع له في الصراع الفكري ليست بالأمر البسيط الممكن تناوله بإيجاز مع الإتيان بكل مافيه من مشاكل ومعضلات فقد سخر له الباحث كاتبا و لم يدعي أنه قد أحاط بكل ظاهره رغم أنه طرح فيه جملة من القضايا الطويلة والمعقدة في الوقت نفسه وهذا لا يمكن بأي حال أن ندعي أننا ألممنا بهذا الموضوع رغم محاولتنا عرضه ودرسه من الناحية اللغوية والاصطلاحية والصراع عند مالك ابن نبي وقضاياه وأسبابه ومالك والصراع ثم تم وضع خلاصة له ولكن لنترك مالك ابن نبي ثانية لتلخيص مظاهر وظواهر الصراع الفكري حيث يقول : إننا قد أنهينا هذا العرض و لم نقل فيه إلا جزآ بسيطا مما تضمنه تجربة شخص وحري بنا أن نقول أن تجربة الشخص مهما تكن ليست إلا جزا ضئيلا من واقع الصراع الفكري .

ومهما يكن من أمر فإن القول محدود بطبيعته في موضوع كهذا لأن هناك موضوعات محرمة وقد أحاطها العرف بسياج من الاعتبارات التي لا تترك مجالا كبيرا إلي القول لأن الناس الذين أثرنا إليهم في هذه الصفحات ، والذين تعرفنا عليهم ودرسنا مواقفهم العامة في بلاد مستعمرة ، خلال ما يزيد على ربع قرن ، لازالوا على قيد الحياة ولولا ضرورات الصراع الفكري ذاته لما أشرنا إلى أحد ولا ذكرنا تفصيلا من التفاصيل التي تتضمنها تجربة شخص معين . ولكن الضروريات تبيح المحظورات .

والأفكار ليست منفصلة عن عالم الأشخاص ، على طريقة "مثل أفلاطون" بل أن ملحمتها تجري كلها على الأرض ، حتى لا يمكننا مهما تحررنا من التجريد .

أن نفصل مغامرة " فكرة " عن مغامرة صاحبها ، فصلا تاما ولو لخصنا هذه الاعتبارات في جملة لقلنا :

ـــ إن الاستعمار يسعى أولا أن يجعل من الفرد خائنا ضد المجتمع الذي يعيش فيه فإن لم يستطع يحاول أن يحقق خيانة المجتمع لهذا الفرد على يد بعض الأشرار .

ومهما يكن من أمر فإن هناك حقائق لا يملك النطق بها إلا من واراه التراب وحضنت أقواله الموت كما أن هناك أقوال لا تقال في كل الظروف وفي مثل هذا الموقف يتعرض الضمير للنقاش حرج عندما يكون المرء بحيث يستغل الاستعمار كلامه ، كما يستغل صمته فهذه الصفحات تعتبر إذن محاولة للتوفيق بين واجب الصمت وواجب الكلام ، ولعل القارئ الشاب يجد فيها المنبه الذي يلفت نظره إلى واقع الصراع الفكري ، ويكفيه أن يفتح عينه لكي يرى بنفسه أمارات هذا الصراع قائمة حوله ، وربما يستطيع أن يستخلص من الوقائع المعروضة لنظره نتائج لم تلفت انتباهنا ، أو أغفلنا عمدا خلال هذا العرض ، احتياطا من التطويل ورغبة في الموضوعية .

وكل ما نتمناه هو أن يقوم في بلادنا رابطة من المثقفين لكشف هجمات الاستعمار دون نجدة ولا مددا.

الصراع :

تمهيد : إن الصراع هو شيء طبيعي بين أبناء الإنسان والله جل وعلا قد ركب فيه الطبيعة ومن ثمة ظل الإنسان مع بني جنسه في صراع مستمر ولعله يطلق

أيضا على صراع الإنسان مع المخلوقات الأخرى كما تصارع هو مع من حوله من البشر ومع نفسه وعقله أيضا وذلك رغبة منه في جلب المنافع ودفع المضار مستعملا من أجل ذلك كل الوسائل المتاحة له .

اللغة: سأحاول اللجوء إلي القواميس قصد استشارتها من أجل [2]

الدلالة على اعتبار أن اللغة هي ذلك المصطلح الممكن للإنسان من معرفة أي قضية يريد الغوص في أعماقها و قد عرف الفيروز بادي هذه العبارة فقال : الصراع و يكسر الطرح على الأرض (كالمصرع كمقعد وهو موضعه أيضا وقد صرعه كمنعه والصرعة بالكسر للنوع ومنه المثل سوء الاستمساك خير من حسن الصرعة ويروي بالفتح بمعنى المرة و بالضم من يصرعه الناس كثيرا وكهمزة من يصرعهم كالصريع و الصراعة كمسكين ودراعه وكامير المصروع) صرعى والقوس لم ينحت منها شيء أو التي جف عودها على الشجر وكذلك السوط والقضيب من الشجر ينصهر إلى الأرض فيسقط عليها وأصله في الشجرة فيبقى ساقطا في الظل لا تصيبه الشمس فيكون ألين من الفرع وأطيب ريحا وسيستاك به، صرع والصرع علة تمنع الأعضاء النفسية من أفعالها منعا غير تام وسببه شدة التعرض في بعض بطون الدماغ وفي مجاري الأعصاب المحركة للأعضاء من خلط غليظ أو لزج كثير فتمتنع الروح عن السلوك فيها سلوكا طبيعيا فتتشنج الأعضاء والصرع المثل ويكسر والضرب والفن من الشيء، أصرع و صروع وكصبور الكثير الصراع ، ككتب وهو ذو صرعين ذو لونين وتركتهم ينتقلون من حال إلى حال و الصرعة الحالة وهو صرع كذا أي حذاءه والصرعان ابلان ترد إحداهما حين تصدر الأخرى لكثرتها والليل والنهار أو الغداة أي العشي من غدوة إلى

الزوال صرع والى الغروب آخر ويقال أتيته صرعى النهار أي غدوة وعشية وما أدرى هو على أن صرعى أمره بالكسر أي لم يتبين لي أمره والصرع بالكسر قوة الحبل ، صروع والمصارع يقال هما صرعان أي مصطرعان وأبو قيس بن صراع كشداد رجل من بني عجل و المصطرعان من الأبواب والشعر ما كانت قافيتان في بيت وبابان منصوبان ينضمان جميعا مدخلها في الوسط منهما و صرع الشعر والباب جعله ذا مصراعين كصرعه كمنعه وفلانا صرعه شديدا .[3]

وعليه يصدق المثل القائل" يا أقرع ابن أقرع يا أقرع انك إن يصرع أخوك تصرع"، ومن هنا انطلق الزمخشري محلل هذه القضية وهو يرجعها إلى الألفاظ اللغوية فيقول : تركته مريعا وتركتهم صرعى ، وصرعهم ريب المنون ، وهذه مصارع القوم ، " لكل جنب مصرع " ودعى إلى الصراع والمصارعة ،ورجل مريع وصرعه: يصرع الناس كثيرا، وصرعة : لا يزال يصرع ، و تصارعا و إصطراعا ، وفتح مصراعي الباب ، وصرّع الباب ، وباب مصّرع ، وهو يحلب ناقته الصرعين والعصرين ، وآتيه صرعى النهار و هما طرفاه ، وفلان ذو صرعين : ذو لونين . و طلبت منه حاجة فما أدرى على أي صرعى أمره هو ؟ أي على أي حال . أمره نجح أم خيبه قال :

فرحت وما ودعت ليلى و ما درت ... على أي صرعى أمرها أتروّح .

ومن المجاز: بات صريع الكأس، غصن صريع : متهدل ساقط إلى الأرض ، و صرع الشجر إذا قطع وطرح ، ورأيت شجرهم صرعى و مصرعات ، و نبات صريع: لما نبت على وجه الأرض غير قائم ، وتصرع فلان لفلان: تواضع له، ومازلت أتصرع و أتضرع إليه حتى أجابني ، وبيت مصرع. [4]

الاصطلاح:

وقد فتح باب الصراع بين البشرية و كانت له أبعد الآثار على جميع المستويات الفكرية و العقلية و أيا ما كان فهو يتسع باتساع المدارك و هو شامل لكل جوانب حياة الانسان حسبما يذهب إلى ذلك جميل صليبا إذ يقرر أن : الصراع في الأصل نزاع بين شخصين يحاول كل منهما أن يتغلب على الآخر بقوته المادية ، كالصراع بين الأبطال الرياضيين ، أو الصراع بين الدول في الحرب .

و يطلق الصراع مجازا على التزاع بين قوتين معنويتين تحاول كل منهما أن تحل محل الأخرى ، كالصراع بين رغبتين ، أو نزعتين أو مبدأين ، أو وسيلتين ، أو هدفين ، أو الصراع بين الشعور و اللاشعور في ظاهرة الكتب ، و لهذا النوع من الصراع عند علماء النفس خطورة بالغة في تفسير مظاهر الشخصية السوية، والشخصية الشادة .

ويقال أن العقل يصارع نفسه إذا كان لا يستطيع أن يسلم من التناقض عند نظره في بعض الموضوعات ، ويشمل هذا الصراع عند كانط كل تناقض يقع فيه العقل عند بحثه من أمر غير مشروط تكون جميع الأمور المشروطة متعلقة به .

ويطلق اصطلاح الصراع بين الواجبات على الموقف الذي يبدو لك فيه أن واجباتك تتعارض ، وانه ينبغي لك أن تختار بعضها و تترك الأخرى ، لتعذر الجمع في آن واحد .[5]

وبناء عليه يجد المرء نفسه أمام صراعات متعددة الألوان و الأشكال والأحجام قد لا يستطيع التوفيق بينهما و سبب ذلك أن الإنسان فيه شجية غير

محدثة يبحث دوما على الصراع قصد تغذية نفسه بها و رغبة منه أيضا في إشباع حاجاته المادية أو النفسية.

مالك والصراع :

يقول مالك ابن نبي :

هناك أشياء لا يجدي الحديث عنها إن لم يكن مستمدا برهانه من تجربة شخصية تضيء الموضوع من الداخل بضوئها الخاص .

والصراع الفكري في البلاد المستعمرة واحد تلك الأشياء فليس للقارئ إذن أن يتعجب إن رأى كاتبا يطرق هذا الموضوع من زاوية تحددها له تجربته الخاصة بما في هذه الكلمة من إشارة إلى بعض التفاصيل من حياته الشخصية ، و لا مجال هنا لذكر علة هذا الموقف للكاتب في البلاد المستعمرة لأن الأمر يستدرجنا إلى الحديث الطويل عن أوضاع البلاد و مقوماتها الفكرية و ربما سوف يأتي هذا الكلام أو بعضه في محله خلال هذه الدراسة .

ويضيف قائلا : أنه يكفينا أن نقول في هذا المدخل أن الكاتب مضطر إلى هذا الموقف بطبيعة الموضوع ، خصوصا إذا ما اضطرته الظروف القاسية للدفاع عن أفكاره في فترة معينة ، عندما يمر الصراع الفكري بأزمة خاصة كما يحدث في البلاد المستعمرة حيث تجهل غالبا أمر الصراع الفكري بينما هو يدور في أرجائها ، ومن أجلها .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نرى أن الكاتب التقدمي في الخارج يجهل هو الآخر هذا الصراع ، فنراه مثلا يشارك في المعركة ضد الاستعمار بجانب

المستعمرين ، ولكنه يشارك فيها مادامت في النطاق السياسي ولكنه سرعان ما ينعزل عنها حينما تأخذ طابع الصراع الفكري كأنما يضيق صدره منها في طابعها الجديد أو أنه بعبارة أخرى ، يرى من حق الرجل المستعمر أن يدفع عن نفسه مادام دفاعه في الحقل السياسي ، ولكنه حينما ينتقل دفاعه إلى الميدان الفكري ، يرى أن هذا الرجل قد دخل مكانا لا حق في دخوله .

كما يقول : أنه من الممكن أن يفسر هذا الوضع بالجهل الذي يحيط بالصراع الفكري في البلاد المستعمرة سواء من ناحية أهل البلاد أو من ناحية الكتاب التقدميين في الخارج ، ولكن التجربة تدل على أن هذا الجهل قد يكون مصطنعا بصورة أم بأخرى ، حيث أن القيادة السياسية في البلاد المستعمرة [6] تتخذ من معركة الأفكار ـــ و لأسباب معينة ـــ موقفا حياديا أو سلبيا ، وأحيانا معاديا .

كما يتخذ الكتاب التقدمي ـــ في الخارج والأسباب أخرى ـــ نفس الموقف ـــ فتراه و هو يخوض المعركة ضد الاستعمار ـــ إذ به كأنه ينحاز إلى صفوفه حينما تتخذ هذه المعركة صبغة فكرية .

ويضيف قائلا : أنه إذا حللنا هذا الموقف الغريب لوجدنا أن هذا الكاتب التقدمي إما أنه يخضع لاعتبارات ملقنة أو لعقد موروثة و هو في كلا الحالتين يصبح موقفه إزاء الصراع الفكري في البلاد المستعمرة موقف العداء أو الحياد فحينما يقدم كاتب من هذه البلاد كتابا للطبع ترى الكاتب التقدمي مثلا يعلن عنه في صحيفته بثلاثة أو أربعة أسطر" كتاب اتخذ صاحبه موقفا يناقض موقف الأحزاب الوطنية "

فإذا ما تصورت أن هذه الصحيفة توزع على نطاق واسع في البلا د المستعمرة التي تدور فيها المعركة الفكرية فسوف تدرك مدى تأثير هذه الجملة الغامضة على مصدر الكاتب ، خصوصا إذا ما تابعت الصحيفة خطتها بعد صدوره ، فنشرت مثلا قائمة " الكتب القيمة التي صدرت خلال الشهر " وتناست أن تذكره من بينهما .

وهكذا نشاهد مواقفات غريبة بين بعض مواقف الكتاب التقدميين و ما يخططه الاستعمار ، حتى يرتاب من يشاهدها فيصبح يتسائل : هل هي مجرد مواقفات أم هي على العكس اتفاقات تحمل طابع الصراع الفكري في أغمض صوره .(7)

ويدخل المثقف في العالم الإسلامي هذا الصراع بعقلية مشتتة لا يستطيع من خلالها أن يواجه في صراعه استحمارا أذل الشعوب و انتقص من حقها في بناء الحضارة معتقدا أن ذلك الأمر حكر عليه لا يستطيع امرؤ ما أن يجاريه فيه و هذه قضية بديهية يطمح إليها أرباب الصراع في العالم لا لشيء إلا لأنهم يرغبون بطبيعة هذا الصراع أن يخرجوا المثقف بيد فارغة و أخرى لا شيء فيها .

و الواقع كما يذهب إلى ذلك الجابري أننا لا نقلل أبدا من دور الاستثمار و الإمبريالية العالمية و ربيبتها الصهيونية في عرقلة تخطيط العرب و المسلمين و قمع كل تحرك حقيقي يقومون به نحو تحقيق حلمهم المشروع في الوحدة والتقدم ، ولكن الذي نريد إبرازه هو عدم قدرة المثقف على استيعاب حقيقة الصراع استيعابا عقلانيا ضمن الشروط الموضوعية و الذاتية التي تغذيها و تجعل منها ما هي

عليه و لذلك نجده يعبر في الأعم الأغلب عن أحوال نفسية وليس عن حقائق موضوعية و لا عن تطلعات خاضعة للرقابة العقلية .

إن غياب الآخر هو فعلا شرط في صراع المثقف ، لكن لاشيء يبرر معادلة هذا الآخر بسقوط الغرب و لا ربط الصراع بقيادة الإنسانية أو ما أشبه ذلك من طموحات ، إن الآخر في الواقع العربي الراهن هو مزيج من المعطيات الذاتية والموضوعية تشكل رواسب الماضي و تدخلات الإمبريالية أهم عناصرها .

وواضح أن نطرح القضية إطلاقا من تحليل موضوعي واقعي علمي — و ابد من التأكيد على هذه الأوصاف رغم تداخل معانيها سيحول المشكل الذي يعانيه العرب من مشكل صياغة حلم مطابق ، من الصراع إلى قضية التحرر الوطني و الخروج من وضعية التبعية و التخلف ومن دون شك فإن هذا الطرح الواقعي — العلمي سيحرر الخطاب الصراعي العربي من مقولاته الفارغة و تأثيرها على الوجدان العربي الراهن ليرفع ليرتفع إلى المستوى العقلاني الذي يمكنه من التفكير في مشروعه المستقبلي انطلاقا من تحليل الواقع الملموس بدلا من التفكير فيه انطلاقا من سراب الحلم وهواجسه .[8]

ويذهب مالك إلى الحديث في خضم هذا الصراع الدائر بين بني الإنسان إلى أن الأدب التقدمي قد حاول قدر المستطاع أن يجابه الاستعمار مع إدراكه أن هذه المجابهة تقتضي الأدوات و الآلات التي تكون بيد الإنسان قصد الوصول إلى أهدافه .

يقول مالك : غير أنه لا بأس في أن نذكر للقارئ بعض تفاصيل ما يمكن أن نسميه " الأدب التقدمي " دون أن ننسى مجابهته لعمليات الاضطهاد في الجزائر مثلا ، أو في إفريقيا الجنوبية .

ففي الجزائر نشهد بأن الكاتب التقدمي يقوم بالدور القيم في فضح وحشية الاستعمار في البلاد المستعمرة و كشفها للرأي العام العالمي .

و لكن هذه الملاحظة لا تزيد موقف الكاتب التقدمي إلا غرابة حينما نراه من ناحية أخرى يلتزم الصمت أمام بعض الجرائم الاستعمارية بينما يثيره غالبا ما هو أقل منها فيدهشنا موقفه في وقائع ذات دلالة : فقد رأينا مثلا منذ سنة تلك الفاجعة التي عنونتها الصحافة ، حتى في البلاد العربية "خطف خائن كبير في الجزائر" وكانت بهذا النبأ المنقول عن شركة أنباء أمريكية تشير إلى مأساة مؤلمة و جريمة لا تغتفر ارتكبها الاستعمار ضد فضيلة الشيخ العربي التبسي الذي اختطفته فعلا اليد السوداء في العاصمة الجزائرية ، حيث انقطعت أخباره من ذلك الحين .ويضيف أن من تتبع أنباء هذه المأساة يرى أنه قد قرأ في الصحافة نبأ اختطاف " الخائن الكبير " في سطرين ، ثم ثلاثة أسطر لتدارك بعد أسبوع و كان التدارك مائعا جدا حتى أنه لم يزل الشبهات التي ألقاها في الأذهان النبأ السابق ، كأنما اليد التي حررت هذا التدارك زميلة اليد التي حررت نبأ الاختطاف و زميلة اليد التي اختطفت .

و هكذا نرى : ثلاثة أسطر تشوه اسما محترما ، وسطران لتدارك مريب ... لم يسدل الليل ظلامه مرة واحدة على مأساة هذا الشهيد الذي قام في وجه الاستعمار خلال ثلاثين سنة . (9)

وهكذا يسود الصمت في تلك الصحافة التقدميـــة ، ذات الـــيمين أو ذات الشمال بينما هي ملأت العالم صراخا حينما اعتقل و حوكم الكردينال مندزاتي.

وهاهو رجل آخر ذلك الصحفي هنري علاج الذي اعتقلته اليد نفسها التي اختطفت الشيخ العربي التبسي و عذبه نفس الجلادون ، ولكنه لا يزال حيا يرزق و ينشر عن تعذيبه كتابا تذيع الصحافة التقدمية صيته في أرجاء العالم و يبلغ طبعه في البلد الواحد ـــ مثل بريطانيا العظمى ـــ الملايين مـــن النســـخ ، ثم تعرضـــه الولايات المتحدة الأمريكية في معرضها في موسكو خلال شهر أغســـطس ســـنة 1959 وهو لكاتب شيوعي ؟

أليس لمن يتبع هذه الأمور ببعض الاهتمام الحق في أن يتساءل هل هذه مجرد موافقات أم هي محاولات لتحقيق أهداف معينة أو بعبارة أخرى . هل هي اتفاقات خاصة بالصراع الفكري ؟يقول مالك : إن شعورنا بمأساة الرجل الـــذي يعتقـــل ويعذب واجب و لا بد أن نحني الرؤوس أمام كل محنة إنسانية و لكنه من واجبنـــا أيضا أن نتمسك بحرية الفكر حتى أمام الموت مع خشوعنا إزاءه .

إن التفاصيل كالتي نذكرها قد تأتي في صور متنوعة في موقـــف الكاتـــب التقدمي و في مستويات مختلفة[10].

إنني أذكر ما اعتراني من العجب خلال مطالعة أخيرة ـــ وهي دون أي شك من أفيد مطالعاتي ـــ فقد تتبعت خطوة خطوة . فكرة الكاتب ملاحظا فيها أكثر من مرة وجوه التشابه بين أفكاره و أفكار أودعتها في كتاب نشرته منذ زمن غير بعيد.

و كان العجب يعتريني خلال هذه المطالعة إذ أنني لم أر الكاتب التقدمي يذكر و لو مرة واحدة ـــ كتابي ، حتى حينما يكون وجه التشابه بيننا لا يمكن أن يفسر بمجرد الصدفة ، بل كنت أراه يلجأ في حالة كهذه إلى التعبير عن الفكرة المتشابهة بألفاظ أخرى ، ثم يتبعها بتعليق فيقول مثلا : " انه لمن فضول القول أن نقول كذا و كذا ..." و كأنه يحاول بهذا التعليق أن يجعل التشابه من طبيعة الأشياء حتى يبعد عن ذهن القارئ التساؤل في شأنه .

وهكذا تصبح الفكرة المستعارة من مؤلف من أبناء المستعمرات شيئا لا يحتاج إلى ذكر صاحبه لأنه من الأشياء المتداولة ، حسب التعليق الذي علق به الكاتب التقدمي الذي استعارها ، وفي مكان آخر لا يلجأ هذا الكتاب إلى مثل هذا التعليق و إنما هو يبدل الألفاظ التي تعبر عن الفكرة : فقد تحدثت مثلا عن الشعوب الإفريقية الآسيوية و وصفتها بأنها تكون " الطبقة الكادحة في العالم " فنرى الكاتب التقدمي يبدل هذه العبارة بأخرى فيقول " الطبقة الكادحة العالمية".[11]

وليس لنا بعد هذا أن نصدر ـــ بمقتضى هذه التفاصيل ـــ حكما عاما بخصوص الأدب التقدمي و الكتاب التقدميين فإننا نجد في مواقفهم في أوروبا من سمو الأفكار ، و علو النفس و طيبة الخاطر، وشجاعة الفؤاد ما هو جدير بالاحترام من كل إنسان يحترم نفسه. و إنما كان علينا في هذا المدخل أن ننبه القارئ الذي لم تسبق له الخبرة بالموضوع، إلى بعض الجوانب المجهولة من الصراع الفكري في البلاد المستعمرة .

الهوامش:

(1) مالك ابن نبي ص 4و5 .

(2) الصراع الفكري ص 181ـــ 182.

(3) القاموس المحيط ج 3 ص 50.

(4) أساس البلاغة ص 353.

(5) المعجم الفلسفي ج3 ص725 .

(6) الصراع الفكري ص 4و5.

(7) المصدر السابق ص 6 .

(8) الخطاب العربي للنهوض ص 32.

(9) الصراع الفكري ص 7 .

(10) المصدر السابق ص 8.

(11) المصدر السابق ص9ـــ10.